

لابد أن نستوقف الحديث عم الحاكم لمعرفة وضع المجتمع الفاطمي:ـ

كانت العناصر البارزة في المجتمع الفاطمي هي فرق وجدت للخدمة المدنية والعسكرية مثل الصقالبة والأترار وكتامة وعدد هام من العبيد الخ ... كانت هذه المجموعات موزعة على عدة أحياء بالقاهرة خاصة ومن واجبها تقديم جنود للجيش عند الطلب الذي تشكل داخله فرقا مقاتلة.

رأى الفاطميون أن وجود هذه المجموعات هو في صالح دوام حكمهم إذ يستطيعون تحريكها كما يشتهون و ضد بعضها أحيانا إذا لزم الأمر - وبذلك يتعذر عليها مفردة أو مجتمعة التآمر أو محاولة السيطرة.

استفاد الحاكم من هذا الوضع فأبقى عليه وعمل على تحقيق التوازن بين هذه القوي وغاية ما يفعله هو أن يقوم حكما بين الفرق المتنازعة عندما يشتد القتال بينها أو يقدم هدايا لبعض أعيانها من أجل أرضائهم ودفعهم المواصللة الخضوع أو الضرب بقوة إذ تعذر غيره كما فعل مع قبيلة بني قرة.

أما المسيحيون واليهود فيظهر أن عددهم كان كبيرا بمصر ومحترمين يمارسون عبادتهم بكل حرية وشغل بعضهم وظائف هامة مثل الوساطة والطبيب الخاص للخليفة - كانت هذه حالتهم على أقل تقدير في جزء من عهد الحاكم وأثناء حكم أسلافه وخلفائه-

هنا لابد من التعرف على سياسة الحاكم الدينية:

استعان الحاكم بخبرة اليهود والمسيحيين لتسيير شؤون الحكم فتولى بعضهم الوظائف الهامة كما أن أطباء الخلفاء الفاطميين كان أغلبهم إذا لم يكن جلهم من المسيحيين وهذا يعني إلى أي درجة كان يستشاق فيهم. وكانت لهم كنائسهم ويتمتعون بحرية الأمن والحماية وزيارة المناطق المقدسة مثل كنيسة القيامة . وسار الحاكم على سنة أسلافه في المشاركة في أعياد النصارى و تقديم الهدايا والخلع مثل عيد الغطاس والشعانيين و الفصح الخ ويحضر أحيانا هذه الاختلافات بنفسه أو بواسطة نوابه ويستقبل رسول الروم بحفاوة الخ

إلا أن الحاكم غير رأيه و تشدد عليهم فأمر اليهود بحمل الجرس والمسيحيين بحمل صليب طويل كما فرض عليهم ركوب أنواع من الدواب واتخاذ سروج معينة وارتداء لباس محدد عند الاستحمام وعدم استعمال عبيد من المسلمين ومنعهم من الاحتفال بأعيادهم ، كما ذهب إلى أبعد من ذلك فأمر بهدم عدد من الكنائس ومصادرة أملاكها ونهبها وأرسل من يخرب كنيسة القمامة ببيت المقدس

و كان الحاكم يحضر كل الاحتفالات الدينية الإسلامية : يصلي بالناس في الأعياد على أقل تقدير ويلقي فيهم خطبة وينحر بنفسه في عيد الأضحى ثم يستدعي الأعيان لحضور مأدبة « سماط » ، ويقدم المصاحف للمترددين على المساجد ، ويدفع أموالا للمؤذنين والقراء ويسند الهدايا لقائد قافلة الحاج التي تتوجه إلى الأراضي المقدسة محملة بكسوة للكعبة وعند العودة منها.

ولم يهمل الحاكم انتماءه الشيعي فشارك في كل التظاهرات الشيعية مثل الاحتفال بذكرى غدير خم (١) وعاشوراء الخ واهتم بجمع مجلس دعوة تلقى فيه دروس في المذهب الشيعي ويتسامح في سب السلف ويمنع تناول بعض الأكلات التي كانت محبوبة لدى بعض أعداء الشيعة مثل الملوخية بالنسبة لمعاوية والبقلة لعائشة الخ

(١) عيد الغدير هو عيد إسلامي يحتفل به المسلمون الشيعة يوم ١٨ من ذي الحجة من كل عام هجري احتفالاً باليوم الذي خطب فيه النبي محمد خطبة عين فيها علي بن أبي طالب مولى للمسلمين من بعده حسب نص الحديث، حيث يعتقد الشيعة بأن النبي قد أعلن علياً خليفة من بعده أثناء عودة المسلمين من حجة الوداع إلى المدينة المنورة في مكان يُسمى بـ"غدير خم"

المذهب الشيعي ويتسامح في سب السلف ويمنع تناول بعض الأكلات التي كانت محبوبة لدى بعض أعداء الشيعة مثل الملوخية بالنسبة لمعاوية والبقلة لعائشة الخ

وكما مر معنا بالنسبة للدين المسيحي فإن سلوك الحاكم في مجال الدين الإسلامي لم يكن منتظما ظاهريا فنجد في النص امتناعه أحيانا عن إمامة الناس في الصلاة لمرض أو لغيره ويأمر بتحديد تاريخ خروج قافلة الحاج من مصر أو يؤخر ذلك ، ويلغي مأدبة الغداء « والاحتفال بذكرى عاشوراء وطرد من كان تعود حضور مجالس الدعوة و يأمر بالكف عن سب السلف ومحو كل ما كتب ضدهم على الحيطان والذهاب إلى حد قتل مؤدبه.

لماذا هذا الانقلاب الظاهري في سلوك الحاكم ؟

أما أنه يدخل في خط سياسته الهادفة إلى محاربة كل القوى الموجودة في دولته أو ليحقق التوازن بينها ؟ وكذلك ليظهر لها كفاءته ورشده ، أو لعله من أجل كسب عطف أهل السنة في الخارج والداخل يقوم بما يرضي هؤلاء وعندما يحس بغضب المتعصبين للشيعة يتشدد على الأولين ؟

ثم ألا يكون اقتنع بضرورة وجود مساواة بين كل الأفكار الدينية وأن يبقى هو حكما على كل ذلك ؟.....

و بالنسبة للقول بتغير سياسته تجاه المسيحيين واليهود قد يعود إلى اكتشافه بأن الفساد الذي عليه مجتمعه هو بسبب تجاهر هؤلاء بما يتنافى مع الأخلاق الإسلامية مثل استحمامهم عراة أو الاحتفالاتهم التي يشرب فيها الخمر ويختلط فيها الرجال بالنساء ؟

الحاكم والثقافة:

من أهم انجازات الحاكم في الميدان الثقافي انشاؤه لدار الحكمة بالقاهرة التي جلب إليها عددا هاما من الكتب وقصدها القراء والنساخ وعينت مرتبات للمشتغلين فيها وبذلك أخذت مصر تتحول إلى مركز اشعاع علمي يضاهي ما هو موجود في بغداد والمراكز الأخرى

في العالم الإسلامي ولعل هذا هو هدف الفاطميين أي بجعل القاهرة قبلة طلاب العلم ومنها تنطلق الدعاية الشيعية.

كما وجدت مجالس تلقى فيها دروس تتعلق بالدعوة الفاطمية . و بنى الحاكم عددا من الجوامع مثل جامع راشدة والحاكم الخ كما كان يأمر بتقديم المصاحف إلى الجوامع.

ويقول نص في إتعاظ الحنفا أن الحاكم متذوق الشعر والأدب ومن ذلك أنه عندما يعن له استعراض فرق جيشه يستدعي الشعراء خاصة و كلما أعجبه بيت شعر طالب بإعادته ويجازي البارزين في ذلك كما وقعت في عهده محاولة لبناء مرصد.

هل يمكن أن يرمي من اهتم بالعلم والثقافة باختلال التوازن والمرض ؟....

الحاكم والمرأة:

كانت المرأة المصرية قبل عهد الحاكم وفي جزء من عهد هذا الأخير تخرج إلى الشارع لقضاء شؤونها و تجول على ضفاف وادي النيل وتشارك في الاحتفالات وتقف على أرصفة الطرقات المشاهدة مرور ركب الخليفة وتطل من النوافذ لرؤية الغادين والرائحين ولعلها كانت تشرب الخمر أحيانا إلا أن هذا لم يخل من بعض المشاكل على ما يظهر مثل اختطاف نساء من الطريق العام وأدى اختلاط النساء بالرجال في الاحتفالات وزياراتهن المقابر إلى حدوث منكر . لهذا ولغيره مما هو غير وارد في اتعاظ الحنفا

خفق الحاكم حرية المرأة فمنعها أولا من مصاحبة الجنائز ثم من زيارة المقابر ومن التطلع من النوافذ، وفرض على كل النساء الفتيات والعجائز المكسوث في المنازل وعوقبت كل من خالفت هذا الأمر وأخيرا منع صنع أحذيتهم مما سبب كساد هذا النوع من التجارة هل لهذا التشدد صلة باكتشافه أمر علاقة بين أخته ست الملك وأحدهم وقد اتهمها بأنها حامل كما تقول رواية في العاظ الحنفا ؟ أو أن هذه الأخيرة ضايقته بمحاولتها التدخل في شؤون الحكم فحقد عليها ومن خلالها المرأة بصفة عامة ؟ أم أن هذا التصرف يعود إلى أن نساء مصر أكثر من الاختلاط بالرجال وممارسة الخطيئة التي تتكرها الديانة الإسلامية ؟ أم هذا له علاقة بما لوحظ عن زهده في اخر حياته ؟

ألوهية الحاكم:

عرف عن الحاكم في بداية حكمه أنه شخصية عادية يهمله استتباب الأمن على طول أراضي دولته ويختار الموظفين الأكفاء ويعاقب المتهاونين والوقحين منهم ويشارك في المناسبات الدينية ويستدعي الأعيان لحضور السماط ويتفقد الأسواق ويذهب إلى الصيد وسط ركب كبير تعلوه الزينة ويحضر فتح الخليج عند ارتفاع مستوى مياه النيل.

إلا أنه في آخر حياته أكثر من الخروج بالليل والنهار وأبدل الركب بخادم وحيد والخيول المطهمة والسروج المذهبة بحمار والألبسة المتألثة بما هو في غاية التواضع ، وأثناء ذهابه وإيابه كان يوزع المال يمينا ويسارا بلا حساب ويتوقف في الطريق ليلتقي شكاوى الناس ويحدثهم ويضاحكهم وأحيانا يمنعهم من الاقتراب منه ، وأكثر من اصدار الأوامر بعضها يتعلق بقتل الكلاب والآخر بمنع بيع النبيذ والزبيب والقلال وفرض منع التجول في وقت معين من الليل كما قتل عددا من الموظفين وغيرهم من السكان وقطع أيدي وألسن البعض

ماذا حدث للحاكم ما الذي غيره ؟

بينما كان على هذه الحالة ورد على مصر رجل يدعى الدرزي فاجتمع بالحاكم ونال هداياه ثم خرج ليقول للناس بالوهية الحاكم فوجي الناس بذلك وهموا به فقتلوه ثم قدم داع آخر يدعى حمزة فأكد هذا القول وأباح كثيرا من المحظورات فالتف حوله أنصار كثيرون وخاصة في الشام.

ما الذي دعاهم للقول بالوهية الحاكم ؟ لعل سلوكه في آخر حياته هو الذي دفعهم إلى ذلك : فالحاكم حرم الخمر وضيق على مروجيه وأتلف حتى الثمرة التي ينتج منها ومنع الملاهي واختلاط الرجال بالنساء كما مال إلى التقشف في لباسه ور كويه لحمار وخروجه في ركب يكاد يكون معدوما وتقديمه للهدايا والهبات والصدقات بلا حساب وأمر بعدم مخاطبته بألقاب التفضيم ومحاربة كل موظفيه الذين تحدثهم نفوسهم بالتكبر وتعيينه لولي العهد هو ابن عمته بالرغم من وجود ابنه وأعتق عددا من خدمه وجواريه

لماذا سلك هذا المسلك ؟ ألا يكون قد زهد في الحكم بعد أن أحس أن جدارا من الخوف وعدم الثقة قد انتصب بينه وبين مواطنيه ؟ ولكن هذا السلوك ألا يمكن ترجمته من بعيد بأنه نوع من التصوف الذي يؤدي إلى الاتصال بالله و بالتالي يؤله صاحبه ؟

ولكن هل كان الدرزي مقتنعا بذلك أم أنه مجرد متشيع خاف على هذه الدولة من الضعف فأشاع ألوهية الحاكم ليقول بأنه معصوم و بالتالي يبرر سلو كه و ليضع حدا لعدم الثقة التي انتصبت بين الحاكم ومواطنيه ؟

ولكن ألا يكون مروجو فكرة ألوهية الحاكم قد توصلوا إلى ذلك بحدسهم وأحاديثهم الخاصة مع الحاكم ؟

أما الحاكم حسب نص العاظ الحنفا فهو لم يعلن عن شيء من هذا القبيل ولم يعارض هذا الداعي وواصل خروجه بالليل والنهار وبكثرة في ركب بسيط نحو الجبل القريب من القاهرة وأصبح ميتالا للوحدة ومبتعدا شيئا فشيئا عن تسيير شؤون الحكم إلى أن كانت نهايته الغامضة التي حمل معها سره في صدره .

نهايته الغامضة:

ما زال الحاكم بملك قواه الجسمية والعقلية إذ أنه لم يصل بعد إلى الأربعين سنة كما كان مهتما بأمر الدولة - ولو نسبيا - إلى آخر أيامه عندما اختفى عن الوجود بعد أن خرج كعادته في جولته الليلية .

يورد المقريري فقرات لبعض المؤرخين تجمع على قتله ! ولكن من يوجد وراء هذه الجريمة ؟ عدد من المؤرخين وجهوا اصبع الاتهام باتجاه ست الملك أخت الحاكم فهذا الأخير اتهمها بأنها حامل ، كما قضى على طموحها في تسيير شؤون الدولة.

و يقول اتعاظ الحنفا بالاستناد إلى نصوص مؤرخين أن ست الملك دبرت مؤامرة بالاستعانة ببعض رجال الدولة الذين تستثيق فيهم و كلفت بعض الخدم لتنفيذ ذلك . ونفذت المؤامرة كما سطرت لها وتسلمت جثة أخيها فأخفت ما حدث حتى رتبت الأمور وهيأت ابنه الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة ثم تخلصت من كل من شاركها المؤامرة التمحو كل أثر لا الاتهامات ممكنة وهذا ما جعل الناس لا يفهمون ماذا حدث بالضبط مما حدا ببعضهم فيما بعد إلى الادعاء بأنه كان في صحبة الحاكم أو أنه الحاكم بنفسه

ما من شك أن فكرة الألوهية والمرض النفساني هي من اختلاف ست الملك حتى تبين بأنه قتل نتيجة اضطراباته النفسية وخروجه في الظلام إلى الجبل بدون حراسة.

وهكذا انتهت حياة الحاكم بأمر الله في ظروف غامضة بعد أن حكم قرابة الخمسة وعشرين سنة ساد في أغلب فتراتهما الأمن على كامل تراب الدولة الفاطمية وروع فيها العديد من الموظفين خاصة ، و بذر الأموال على شكل هدايا و هبات و خلع - بالرغم من أنه لم يكن الوحيد من الفاطميين في سلوك هذا المسلك - و حارب كل القوى الاجتماعية - وأكثر من اصدار الأوامر في تنظيم حياة العباد و نظافة المدينة و تتدخل في الكبيرة والصغيرة شأنه شأن أي حاكم ديكتاتوري ، وأصدر بعض الأوامر ثم تراجع فيها وعفا عن البعض ثم أقر اعدامه ، و هذه استراتيجية في الحكم لاتقاء الثورات وريح الوقت وكم وقع اللجوء إليها حتى في عصرنا هذا . وقد أشيعت في آخر حياته فكرة ألوهيته التي لم يرفضها أو يزكيها إلا أنها كونت حولها فرقة الدروز التي ما زالت تعيش إلى اليوم.

هذه شخصية الحاكم كما جاءت في العاظر الحنفا والحقيقة إنني إنلتزمت بحثا قصيرا حاولت فيه التعريف بالحاكم بتقديم معلومات مختصرة مجتهدا في نفس الوقت تقديم بعض التعليقات لسلوكه لأن المقريري أهمل في الغالب ذلك و لعله رأى أن عدم الانحياز والعلمية يقتضيان هذا التحفظ.

وقد حاولت بهذا البحث أن أبعد عن الحاكم الأفكار المسبقة التي تلاحقه وفكرة الشخصية الغربية الأطوار التي ألصقت به ، وأردت أن أقول أنه من طينة نوع من الحكام وصحته العقلية طيبة إذا كانت هذه الصفة تطلق على الحكام ذوي النزعة الفردية.

عصر المستنصر بالله والشدة المستنصرية:-

الشدة العظمى أزمة تشتمل على الصعوبات السياسية والاقتصادية والطبيعية التي أصابت مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي في الفترة الواقعة ما بين سنتي ٤٨٧ - ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣-١٠١٥م، وما ترتب على هذه الصعوبات من آثار اجتماعية سيئة.

لم تحدث هذه الشدة دفعة واحدة، وإنما جاءت وليدة ظروف وأحداث سابقة لهذه الفترة، فقد تعرضت مصر والعالم الإسلامي لأزمات سبقت هذه الشدة كان لها تأثير كبير على حياة الناس في المجتمع الإسلامي، وقد عانى منها أهل مصر معاناة كبيرة.

بدأت أول المجاعات التي تعرضت لها مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي بحدود سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢م، وكانت هذه الأزمة ناتجة عن قلة المؤن والمواد الغذائية حتى خلت مخازن الدولة الفاطمية من الغلال.

وقد تعود المصريون على تخزين المواد الغذائية من حبوب وغلال تحسباً لما قد يحدث ليستعينوا بها على سنوات الشدة في حال حدوثها.

ففي سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤م، تعرضت مصر للغلاء ، كما حدث فيها وباء فاشتد الأمر على الناس، ووصل سعر تليس القمح إلى ثمانية دنانير، وتأثر بهذه الضائقة جميع الناس حتى التجار..

وتكرر وقوع الغلاء والوباء بمصر في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٠٠م ، وكان لانخفاض مياه النيل عن العادة في هذه السنة أثر في ذلك، وامتدت آثار هذه الأزمة في هذه السنة إلى مكة لأن مصر لم تتمكن من إرسال الطعام إليها كالعادة، فحدث في مكة غلاء أدى إلى ارتفاع أسعار الخبز وأشرف الناس على الهلاك

وهذا دفع أميرها ابن أبي هاشم أن يعمد إلى ثياب الكعبة، وأخذ ما فيها من الذهب والفضة من قبلتها وميزابها وحلق بابها وضرب منه الدنانير والدرهم ، أما ابن الأثير فيذكر أن الله سبحانه وتعالى أرسل إليهم الجراد الذي ملأ الأرض فتعوض الناس بأكله وخفف من حدة الأزمة

كما تكرر حدوث الغلاء وانتشار الأوبئة والأمراض في مصر في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٩ م، وسنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م، وفي سنة ٢٥٥ هـ / ١٠١٣ م، فيذكر ابن كثير أنه وقع في مصر في هذه السنة وباء شديد وكان يخرج بسببه من مصر كل يوم ألف جنازة.

وكانت أصعب الأزمات هي الأزمة التي حدثت سنة ٢٤٨ هـ / ١٠٩٦ م، فقد عم فيها الوباء وهو مرض الطاعون، والقحط الدنيا بأسرها، وشمل على وجه الخصوص من العالم الإسلامي بغداد والشام ومصر. واشتدت الأزمة كثيرة حتى أكل الناس الميتة وارتفعت الأسعار، فبلغ سعر الرمانة والسفرجلية ديناراً، وذكر ابن تغري بردي أنه كان يموت في مصر كل يوم حوالي عشرة آلاف إنسان، فباع عطار في يوم واحد ألف قارورة شراب - لعله يقصد بذلك العطور التي كانت ترش على الأموات). ومع أن هذه الروايات فيها كثير من المبالغة إلا أنها تشير إلى الصعوبة البالغة في الأحوال الاقتصادية وما رافق ذلك من تدهور في الحالتين الصحية والاجتماعية.

واستمر تأثير هذه الأزمة بعد ذلك ويبدو أن أحداث وأزمات سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م. كانت نتيجة لذلك، فارتفعت الأسعار ووصل سعر أردب القمح إلى ثمانية دنانير، والشعير والفول خمسة دنانير، والحمص تسعة دنانير

وبلغت الأزمة من الشدة أن قام رجل فباع دربا في القاهرة كان فيها عدة بيوت بطبق من الخبز، لذلك سميت دار طبق)، رغم أن الدار الواحدة في هذا الدرب كانت تصل قيمتها إلى عدة آلاف من الدنانير قبل الأزمة، ثم بيعت دار برغيف خبز واحد فسميت دار رغيف .

ومن طرائف ما حدث في هذه الأزمة ما يذكره الدواداري الذي يقول بأن الناس في هذه الأزمة أكلوا جلود الكتب - لعله يعني قبل تصنيعها أما بعد ذلك فهذا غير ممكن - وأن الكلاب كانت تدخل البيوت فتأكل أطفالها فلا يستطيع أحد أن يمنعها من ذلك لشدة ما أصابهم من الجوع والوهن، وكانت الطيور كالحمام والعصافير تموت من الجوع

أما أسوأ أزمة تعرضت لها مصر في خلافة المستنصر بالله فكانت الشدة المعروفة بالشدة العظمى، وكانت أسوأ ما تكون هذه الشدة في الفترة الواقعة ما بين سنوات ٤٥٧ - ٤٩٢ هـ (١٠٧٠ - ١٠٩٥ م رغم أن آثارها استمرت عدة سنين بعد ذلك وقد شملت هذه الشدة جوانب متعددة منها :-

١- تدهور الأوضاع السياسية التي اشتملت على أمرين مهمين هما:-

أ- الفتن والحروب بين عناصر الجيش الفاطمي الأتراك والسودان.

ب- كثرة تبدل الوزراء

٢-الازمة الاقتصادية والاجتماعية وتضمنت

الكوارث الطبيعية كالزلازل والجفاف والقحط.

الأوبئة والأمراض

ارتفاع الأسعار.

المجاعة.

كان تدهور الأوضاع السياسية من أهم الأسباب التي دفعت إلى ظهور الأزمة، وساهمت الخلافة الفاطمية نفسها بدور كبير في هذه الأزمة، ففي سنة ٥٤ هـ / ١٠٩٢م. خرج الخليفة المستنصر بالله في نزهة له إلى مكان يعرف ب (جب عميرة) قريبة من القاهرة؛ وهو المكان الذي كان يتم فيه توديع الحجاج واستقبالهم في كل عام، فاعتدى أحد الأتراك وهو سكران على أحد العبيد وقتله، فتجمع عدد من العبيد وقتلوا التركي ، فأدى ذلك إلى استحكام العداء بين الأتراك والعبيد، والتقوا في ناحية الإسكندرية بمكان يسمى كوم الريش (كوم شريك) وجرت بينهما حروب انتهت إلى انتصار الأتراك. أو لعل الخليفة كان في وداع الحجاج كما يذكر ابن الأثير ، وهو الأمر الأقرب إلى الصحة.

وتدخلت أم المستنصر إلى جانب العبيد فهم من بني جلدتها وكانت تعطف عليهم، فقدمت لهم الأموال والسلاح، وعندما علم الأتراك بذلك شكوها إلى الخليفة المستنصر الذي أنكر عليها عملها

وتحامل المقرئزي كثيرة على الخليفة المستنصر بالله عندما اعتبره سبب هذه الفتن ، فقد أشار إلى أنه كان يخرج كل عام بنزهة مشابهة في غير موسم الحج على سبيل الهزل والضحك ويلبس لباس الحجاج وكأنه يريد الحج. ويحمل معه الخمر عوضا عن الماء، والطبول و آلات الطرب والمغنين والراقصين ، وفي أحد هذه الجولات كانت الشرارة التي أشعلت هذه الفتن والحروب.

أما الأسباب الحقيقية لهذه الفتن فتعود إلى تراكمات سابقة مرت بها البلاد في العهد الفاطمي، وتدخل الشخصيات المتنفذة في القصر منذ وفاة الخليفة الظاهر الذي ترك ابنه الصغير المستنصر وريثا للحكم، لهذا سيطرت أم المستنصر على شؤون الدولة بالاتفاق مع أبي سعيد التستري، وأبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي

وكانت أم المستنصر جارية عند أبي سعيد التستري قبل أن يتزوجها الظاهر ، وقدمها أبو سعيد هدية للظاهر، ولعله أراد من ذلك أن تكون عوناً له في القصر، لهذا لا غرابة أن نراه من المقربين وأهل الرأي، وهو الذي توسط لدى المستنصر وأمه بتقريب صدقة بن يوسف حتى وصل دست الوزارة

وعندما حدثت الوحشة بين التستري وصدقة بن يوسف تخوف الأخير من أم المستنصر التي كانت تثق بالتستر ثقة مطلقة، ولجأ صدقة إلى اصطناع الجنود الأتراك فقربهم إليه وزاد في إعطياتهم وأرزاقهم ، ثم حرضهم على قتل التستري فقتلوه ، مما أغضب أم المستنصر فحقدت عليه وعلى الأتراك ، وبدأ كل من الطرفين يستميل جماعة من الجند، فقربت أم المستنصر إليها العبيد من السودان وهم أبناء جلدتها في استكثرت منهم وخصصت لهم الأرزاق وكانت تحرضهم على الأتراك الذين كانوا يشكلون أهم عناصر الجيش الفاطمي مما جعل الأمور متأزمة بين الطرفين ومهيأة للانفجار .

وننتج عن ذلك حروب كثيرة بين المتنازعين، فحاول الخليفة المستنصر التدخل - وكانت أمه بتصرفاتها غير السليمة قد أفست عليه الأمور - وكلف وزيره أبا الفرج بن المغربي الذي تردد على الأتراك والعبيد، وتمكن أن يصلح بينهما، غير أن ذلك الصلح لم يضع حدة للخلافات القائمة، إذ سرعان ما عادت الحروب بينهما

استعان الأتراك في حروبهم مع العبيد بكبير قادة الجيش ناصر الدولة ابن حمدان، كما حاولوا استمالة المغاربة من المصامدة وكتامة ، الذين فقدوا مكانتهم الأولى في الجيش الفاطمي، وتمكنوا أن يوقعوا بالعبيد هزيمة كبيرة سنة ٤٠٩ هـ / ١٠٩٧م

ثم تحول الأتراك وناصر الدولة على الخليفة المستنصر الذي اعتبروه سببة في هذه الحروب، وحملوه مسؤولية كبيرة، فاتهموه بالتواطؤ مع العبيد، والسكوت على إمدادهم بالأسلحة والأموال، وحاصروا المستنصر في قصره وضيقوا عليه وطالبوه بدفع الأموال

حتى خلت خزائنه منها لكثرة ما خرج منها للإنفاق على الجند الأتراك، واجبروه على إخراج ذخائره وذخائر آبائه وبيعها بأبخس الأثمان

وفي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٩٩ م تغلب الأتراك على الخليفة، واعتدوا على مؤسسات الدولة المالية، ونهبوا دور المكوس والجبايات، وأصبحت قصور الفاطميين مرتعا خصبا للنهب والسلب في هذه الفتن حتى تعرضت كثير من موجودات القصور للحريق والدمار، ويورد المقرئ في كتابه (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) إشارة إلى كثير من الأموال والأثاث الفاخر الذي تم إخراجها من قصر الخليفة المستنصر والتي قدرت بأثمان زهيدة أو بيعت بأرخص الأسعار. ووردت إشارات تثير الاستغراب منها تعرض الخليفة المستنصر لمحنة كبيرة جده، عندما بعث إليه ناصر الدولة من يخرج ما تبقى عنده من الآلات والثياب، وكان من غريب ما في القصر كلوتة مرصعة بالجواهر يقال بأنه كان فيها سبعة عشر رطلا من الجواهر اقتسمها اثنين من قادة الجيش هما فخر العرب وتاج الملوك.

ومنها نهب الجنود الأتراك تربة القصر الفاطمي وأخذ ما فيه من قناديل الذهب والمداخن والمجامر وحلي المحاريب، وكانت هذه التربة مقبرة أقامها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عند قدومه إلى مصر ودفن فيها رفات آبائه وأجداده. وهنا يبدو التهويل والمبالغة فمن غير المعقول أن يعتدي الجنود الأتراك على قبور أباء الخلفاء لنهب موجوداتها ولا يستطيع الخليفة أن يصنع شيئا فكان إذن بمقدورهم عزل الخليفة وتجنب ويلات الحروب والفتن لأنه لم تعد هناك قدرة على المقاومة، وإلا فكيف تنهب القبور؟

ثم ساءت العلاقة بين ناصر الدولة ابن حمدان وبين الأتراك بسبب تفرده واستبداده بالأمر، فلم يكن يأخذ رأيهم أو يوليهم كبير عناية، فعملوا على الإيقاع بينه وبين الوزير ابن أبي كدينة، وبعثوا إلى الخليفة للتعاون معه على طرد ناصر الدولة، وعندما وجد ناصر الدولة نفسه من غير أعوان ينصرونه خرج من القاهرة إلى الجيزة، فاعتدي الناس على دوره ودور أصحابه ينهبونه، وتعاون قادة الأتراك مع الخليفة المستنصر واستطاعوا أن يلحقوا به هزيمة وقتلوا عددا من أصحابه

هرب ناصر الدولة وأتى بني سنبس الذين صاهرهم وتقوى بهم وهزم الجيش الذي أرسله المستنصر بالله لمحاربة. فقد تناهى إلى علم المستنصر أن ناصر الدولة راسل السلطان

السلجوقي ألب أرسلان للاتفاق معه، فعمد المستنصر إلى إرسال جيش للتخلص منه ، لكن ناصر الدولة تمكن من توجيه ضربة قوية للجيش الفاطمي، وأسر مقدمهم، وقتل عددا كبيرا منهم، ونهب الريف، وقطعت الميرة عن مصر في البر والبحر، فكان لذلك أسوأ الأثر على البلاد حيث ارتفعت الأسعار وقل الطعام، وانتشرت الأوبئة والأمراض، وقام الجند بنهب دور العامة، واعتدوا على السكان الآمنين..

وقطع ناصر الدولة الخطبة للخليفة المستنصر بالله من مدينتي الإسكندرية ودمياط ومناطق الوجه البحري، وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، ولعله كان يخطط بهذا للقضاء على الخلافة الفاطمية ولم يحرك المصريون ساكنة، فقد كان أكثرهم من أهل السنة الذين يريدون التخلص من الحكم الفاطمي والعودة إلى حظيرة الخلافة العباسية في بغداد.

اصطلح الأتراك مع ناصر الدولة بسبب الضيق الذي أصابهم والصعوبات التي تعرضوا لها إثر حصاره للخلافة الفاطمية ومنع وصول المؤن والبضائع إلى القاهرة، وتسلط ناصر الدولة بما اجتمع له من الجند والأعوان على الخليفة المستنصر وضايقه بكثرة طلباته بعد أن فقد كل ما لديه من مال ومتاع حتى قيل أن رسول ناصر الدولة إلى المستنصر رق لحال الخليفة وبكى عليه عندما رآه لا يجد غير حصير يجلس عليه بعد العز والجاه الذي كان فيه

ولما بالغ ناصر الدولة في التسلط على الخليفة المستنصر وضيق عليه أثار بعض قادة الأتراك، وتخوفوا من قطع خطبة المستنصر بالله، وما قد يترتب على إلغاء الخلافة الفاطمية إذا نجح ناصر الدولة في مسعاده، فقد فطن لعمله هذا قائد كبير من قواد الأتراك اسمه (الدكز)، وعلم أنه إذا تم له ما أراد انقلب عليه وعلى أصحابه، وأطلع على ذلك عدد من قواد الأتراك، لذلك قرروا التخلص منه بالحيلة والدهاء، ولم يشعر ناصر الدولة إلا والأتراك قد دخلوا عليه داره في ساعة مبكرة من النهار ومعهم صهره الدكز التركي، فهجموا عليه في صحن داره وقتلوه .

تبدل الوزراء

كان تبدل الوزراء وسرعة عزلهم وتعيينهم أحد أهم مظاهر الاضطراب السياسي في خلافة المستنصر بالله الفاطمي، فقد انعدمت الثقة بين الخليفة وموظفيه حتى مع أقرب الناس إليه ، لهذا كثر تبدل الوزراء، فكان الواحد منهم لا يلبث أن يأتيه كتاب تعيينه في

منصب الوزارة حتى يأتيه كتاب العزل (١٣) ، كما انعدمت الثقة بين الرعية والسلطة الأمر الذي جعل منصب الوزارة مقلقا لصاحبه ما قلل الإقبال عليه..

ومن الأسباب التي دفعت الخليفة إلى ذلك أيضا كثرة مخالطته للرعاع من الناس، وتقديم الأراذل منهم، وكثرة السعائيات لديه، في اشتبهت عليه الأمور وضعف تدبيره فأصبح غير قادر على اتخاذ القرار المناسب ، وصار تعيين الوزراء يعتمد على أمرين أساسيين هما:

من يكون أكثر إخلاصا من غيره.

ب- من يدفع مالا أكثر من غيره ليفوز بهذا المنصب.

وتولى دست الوزارة شخصيات كثيرة في الفترة الواقعة ما بين السنوات ٤٠٥ - ٤٩١هـ/ ١٠٩٩-١٠٩٣م، فجلس بعضهم يوما واحدا في الوزارة وجلس بعضهم عدة أيام ، ونادرا ما أقام الوزراء عاما كاملا في مناصبهم، فقد صدر لهذا المنصب أكثر من أربعين تقليدا في مدة لا تزيد على ثماني سنوات، وتدخل الجند في بعض الأحيان لعزل الوزراء، خاصة إذا كانت سياسة الوزراء تتعارض مع توجهاتهم ومصالحهم، انظر القائمة رقم (١) بأسماء وزراء هذه الفترة.

الأزمة الاقتصادية والاجتماعية

انتجت الأزمة الاقتصادية عن ثلاثة أسباب رئيسية أسهمت جميعها في خلق الأزمة وتفاقمها حتى أصبحت كارثة يصعب السيطرة عليها ، وهذه الأسباب هي :-

الفتن والحروب التي تعرضت لها مصر قبل هذه الأزمة واثنائها بين الجنود الأتراك والسودانيين، وسبق الحديث عنها..

الكوارث ومنها الزلزال الذي أصاب مصر سنة ٤٦٠هـ / ١٠٩٨م.

الأمراض والأوبئة التي تكرر حدوثها في أكثر سنوات الأزمة، فقتلت أعدادا كبيرة من الناس.

بدأت الأزمة بصورة جدية سنة ٥٧ هـ / ١٩٠٥م وامتدت أكثر من سبع سنوات تقريبا كلها محن ومصائب لا تنتهي مصيبة حتى تبدأ غيرها، وقد بالغ المؤرخون في تناول هذه الشدة وآثارها في أكثر السنوات التي اشتملت عليها، ولعل فيما ذكره ما يبين فداحة الخطب وبالغ الأثر الذي أصاب الناس من جراء هذه الشدة في مصر : قال ابن خلكان: «حدث في أيام المستنصر بالله الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام، وأقام سبع سنين و أكل الناس بعضهم بعضا حتى قيل أنه بيع رغيف واحد بخمسين دينارة»

ويتحدث ابن تغري بردي في أحداث سنة ٥٩٤ هـ ١٠٩٧م يقول : « وفيها كان بمصر الغلاء والقحط المتواتر الذي خرج عن الحد ولا زال في هذه السنة والتي قبلها إلى أن أخذ أمره في نقص في سنة ٤١١ هـ وبيع القمح في هذه السنة بثمانين دينارا الأردب»

أما الدواداري فيصور الحالة بصورة سيئة جدا بسبب أضرارها وأثرها فيقول : « وفي سنة ٦١٤ هـ كثر الوخم والوباء مصر وعاد الطير المعروف بالرخم كثيرة جدا حتى عاد في سائر دور مصر يطرد فلا يبرح، وعاد الناس يطلع في حلوهم صفة التخم فيموتون بها، فقليل سنة الوخم والرخم والتخم، فنعوذ بالله من أنظارها

ويتحدث ابن كثير الدمشقي عن حوادث سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠م يقول : « وفيها كان غلاء شديد مصر، فأكلوا الجيف والميتات والكلاب، فكان يباع الكلب بخمسة دنانير»

أما المقرئزي فقد تحدث عنها كثيرة في كتابه (اتعاظ الحنفا) حيث يذكر أحداث سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩م فيقول : «واشتد الغلاء بمصر وقلت الأقوات في الأعمال وعظم الفساد والضرر وكثر الجوع حتى أكل الناس الجيف والميتات ووقفوا في الطرقات يخطفون من يمر من الناس فيسلبونه ما عليه» .

وفي إغاثة الأمة يتحدث عن الشدة بصورة عامة فيقول «ثم وقع في أيام المستنصر الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة و استيلاء الأمراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل وعدم من يزرع ما شمله الري وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فنزع السعر وتزايد الغلاء واعقبه الوباء

حتى تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف، وخيفت السبل برا وبحرا وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر واستولى الجوع لعدم القوت»

إن هذه النصوص تصور صعوبة ما وصل إليه حال أهل مصر في هذه الشدة. وتكشف لنا الأسباب الحقيقية لهذه الأزمة والتي أكثر ما ترد وضوحا عند المقريري وتتمثل في الأمور التالية:-

ضعف الخلافة الفاطمية التي عجزت عن فعل شيء لإصلاح أحوال الناس.

سيطرة الأمراء ورجال الدولة المتنفذين الذين لا يعينهم غير مصالحهم الخاصة.

فساد العربان واعتداءاتهم، وهي القبائل العربية المقيمة على الحدود الغربية والشرقية المصر.

نقصان مياه النيل.

توقف الفلاحين عن الزراعة في الأراضي المروية.

عدم توفر الأمن حتى داخل المدن.

كانت المجاعة أهم مظاهر هذه الشدة وتمثلت بقلّة الإنتاج الزراعي ونقص الغذاء، وكان سبب ذلك الجفاف وخراب الأراضي الزراعية لعدم توفر الأمن في البلاد، فعم الجوع وارتفعت الأسعار ارتفاعا كبيرا.

وساهم اضطراب الأحوال السياسية في زيادة حدة هذه المجاعة لأن المزارعين أصبحوا غير آمنين على أنفسهم ومزروعاتهم، وصاروا مهتدين بالاعتداء، وفرض الضرائب العالية، كما ضعفت التجارة اضطراب حبل الأمن فالتاجر غير الأمن في الداخل لن يكون آمنة إذا تنقل في البلاد.

وبلغت حدة هذه الأزمة أن دفعت بعض الناس إلى أكل لحوم الميتات من الدواب المحرمة كالكلاب والقطط وغيرها ، وتاجر الناس بالحيوانات التي لا تؤكل لحومها حتى أصبح بيعها أو شراؤها للحصول على لحومها أمرا مألوفا عند بعض الناس لعدم توفر الطعام لهم، أو ربما لعدم قدرتهم على شرائه لارتفاع ثمنه، وصارت التجارة بهذه الدواب

مريحة لبعض الناس ، فقد وصل سعر الكلب إلى خمسة دنانير ، وسعر القط إلى ثلاثة دنانير

وهنا لا بد من الإشارة إلى قضية مهمة وهي احتكار السلع والمواد الغذائية الذي مارسه التجار في هذه الفترة ، وتركز الاحتكار على المواد الضرورية بهدف كسب الأرباح الكثيرة، وعمد تجار الطعام والأغذية إلى إخفائها من الأسواق مما أدى إلى ارتفاع أسعارها ، وعجز الناس عن شرائها، أما السلع الأخرى والتي لا تدخل في صناعة الأطعمة ولا تستعمل للغذاء فقد تعرضت أسعارها للانخفاض الشديد، كما انخفض سعر صرف الدينار، مما أدى إلى تدني قيمة النقود المتداولة بما فيها النقود الذهبية.

ويبدو أن وطأة هذه الأزمة زادت كثيرة فدفعت بعض الناس إلى القيام بأعمال وتصرفات غير طبيعية خاصة بين من صعب عليهم توفير القمة العيش لهم وأفراد أسرهم، فقد أورد المؤرخون أخبارا كثيرة عن هذه الأزمة إلا أن بعض هذه الأخبار لا تخلو من المبالغة على الرغم من تدهور الأحوال الاقتصادية وتدني مستوى المعيشة، وضيق ذات اليد بين الناس، ومن ذلك ما نقله ابن الجوزي أنه في هذه الشدة تم اكتشاف رجل يذبح الصبيان والنساء، ويأكل من لحومهم ويبيع بعد أن يطبخها، ثم يقوم بإخفاء رؤوسهم و أطرافهم في حفرة أعدها لذلك، فتم القبض عليه وقتل ، ثم قامت جماعة أخرى فأخذوا من لحمه وأكلوه.

فقد أدى الفقر والجوع إلى تردي الأحوال الاجتماعية، وانحطاط المستوى الفكري، فانتشرت الشعوذة و كثر الدجالون، وسيطرت الاوهام على عقول الناس، حتى صاروا يصدقون كل ما يروى لهم من حكايات، دون تحقق من ذلك، لهذا فتح المجال لتناقل حكايات أعتمد أن كثيرة منها من ضروب التوهم والخيال، وبسبب كثرة ترددها بين الناس زعم الكثيرون أنها أحداث مرت على المجتمع، لهذا فإن الإشارة في هذا البحث إلى كثير من الروايات التي نقلها المؤرخون أنها تبين كيف انعكست الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المتردية حتى وصل تأثيرها إلى حد قبول الأساطير والخزعبلات، وهذا مرض اجتماعي خطير سببه الجوع والفقر و عدم توفر الأمن والاستقرار .

ويروى أن الوزير الفاطمي قدم إلى الخليفة على بغلة له ومعه أحد غلمانة، فترك البغلة مع الغلام بالباب ودخل هو إلى الخليفة، فاعتدي ثلاثة أشخاص على البغلة وأكلوا لحمها

، فحكم عليهم بالموت فقتلوا وصلبوا، فلما طلع عليهم نهار أول ليلة بعد ذلك لم يجد الناس منهم غير العظام مما يدل على أن جماعة أخذوا لحومهم وأكلوها من الجوع وهذا أمر مستبعد فلا يعقل أن يحكم عليهم بالموت أو الصلب السبب كهذا لا في الشرائع الدينية ولا في القوانين الوضعية.

وكثرت الروايات التي تحمل المبالغة المفرطة وتطرف أصحابها كثيرة في وصف أحداث هذه الأزمة وآثارها، فيرى بعض المؤرخين أن هذه الأحوال دفعت بعض الناس إلى اختطاف المارة في الشوارع، وكان يقوم بهذه الأعمال طوائف من أهل الفساد بمصر يقومون برصد المارة ويخطفونهم بسرعة ويتم إخفاؤها أكل لحومهم، فيذكر أن امرأة تم اختطافها في هذه الشدة ، فشربوا من لحمها وهي على قيد الحياة، وشبوا ثم أكلوا، واستطاعت هذه المرأة أن تزحف في غفلة منهم وهم يأكلون حتى وصلت إلى مكان في الشارع وجدت فيه من ينجدها ، فحملت إلى بيتها وتم علاجها ثم ارشدت الوالي إلى مكان الفاعل فقبض عليه وقتل

كما دفعت ظروف هذه الأزمة بعض الناس إلى العمل في أماكن لا تتناسب ومكانتهم الاجتماعية، فكان بعض الأمراء والقادة يعملون على خدمة مرتادي الحمامات لقاء توفير حاجاتهم من الطعام بعد أن فقدوا مناصبهم، فيذكر ابن تغري بردي أن رجلاً ذهب إلى الحمام فخيره صاحب الحمام فيمن يخدمه بين سعد الدولة أو عز الدولة أو فخر الدولة، وظن الرجل أن صاحب الحمام يهزأ به، فأتي بهم فلما نظر الرجل فإذا جماعة ممن كانوا من أعيان الدولة ورؤسائها دفعتهم الحاجة إلى الخدمة في الحمام ينتظرون أوامره للقيام على خدمة الزبائن . واحتاج بعضهم إلى سؤال الناس لسد رمقه

أثارت هذه الأعمال الذعر والرعب بين الناس، وأصبحوا يتخوفون من الخروج في الشوارع ليلاً، كما كان يتخوف بعض الناس على موتاهم، فلا يقدمون على دفنهم في النهار، بل كانوا ينتظرون حتى يحل الظلام ويدفنون موتاهم في الليل حتى لا تتبش قبورهم ، حيث انتشرت عادة نبش القبور لأكل لحوم الأموات، أو سرقة الأكفان، وهو الأرجح.

تأثر جميع أهل مصر بهذه الضائقة بمن فيهم الخليفة الفاطمي وحاشيته، فبعد اعتداء الجند الأتراك وقائدهم ناصر الدولة على مؤسسات الدولة الفاطمية وقصر الخلافة أصبح

ال خليفة يعاني من ضائقة مالية ومن شح الطعام في قصره فلم يجده في بعض الأيام، ويصور المقريري سوء الحالة التي وصل إليها البلاط الفاطمي في النص التالي:

ووصل الأمر أن الخليفة الفاطمي صار يجلس على نخ أو حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره، وخرج نساء قصوره ناشرات شعورهن بصحن : الجوع الجوع، وهن يردن المسير إلى العراق، فتساقطن عند المصلى بظاهر باب النصر من القاهرة ومن جوعا»

وتفرق كثير من أهل مصر في البلاد من شدة الجوع بمن فيهم بعض أبناء الخليفة المستنصر، حيث وزع بعضهم على الولايات التابعة له، فبعث الأميرين عبد الله وأبا علي إلى عكا و نزلا عند أمير الجيوش بدر الجمالي، كما بعث الأمير أبا القاسم والد الحافظ إلى دمياط، ثم بعثه إلى عسقلان فأقام بها ، بينما ترك عنده أحدهم هو أبا القاسم أحمد

فمثل هذه الروايات تحتل كثيرا من المبالغة، إذ من غير الممكن أن يستمر قيام دولة تتبع لها بلاد وولايات واسعة مثل الشام والحجاز والمغرب وخليفاتها عاجز حتى عن أطعام ابنائه ، فأين جيشها ومن يطعمه، وأين موظفوها ومن يدفع رواتبهم ؟.

إلا أن هذا يعطينا صورة عن ضخامة الأزمة التي كانت تعاني منها، ومدى ما وصلت إليه الأحوال المعيشية من ضنك وجوع، وإن حدثت تصرفات غريبة فإنها تكون تصرفات فردية وحالات قليلة عند أكثر الناس معاناة من هذه الأزمة، ولعل البحث فيها كان لتنبيه أصحاب العلاقة والقرار على اتخاذ موقف مناسب لمواجهة هذه الأحوال الصعبة.

وقد شاركت جماعات من أهل البر والإحسان في مواجهة ظروف الجوع التي تعرض لها أهل مصر، وكان هؤلاء من أصحاب اليسر والرخاء ومن يملكون الأموال الكافية للمشاركة بذلك وممن تمكنوا من خزن الحبوب والغلل في السنوات التي سبقت الشدة، وكان من بين هؤلاء امرأة كانت تعرف باسم (الشريفة بنت صاحب السبيل)، ويذكر المقريري في هذا السياق حكاية تبدو غريبة يشير فيها إلى أن بنت صاحب السبيل تنبعت إلى عسر حالة الخليفة المستنصر، فكانت تبعث إليه مع من تبعث إليهم على سبيل الصدقة ، وقد أنفقت هذه المرأة كل أموالها في هذه الشدة. مواجهة الشدة

أمام التحديات الاقتصادية وظروف الحياة الصعبة كان لا بد من أن تظهر محاولات تهدف إلى حل الأزمة والتخفيف من حدتها وتأثيرها على الناس، فكان ذلك على ثلاث صور هي:

تطوع الأغنياء على توفير الطعام لأصحاب الحاجات.

قيام الدولة بالزام التجار على إخراج الغلال وبيعها بأسعار مناسبة.

طلب الخليفة معونة أحد ولاته وهو الأمير بدر الجمالي لإعادة الأمن إلى البلاد.

فقد تطوع بعض أصحاب الجاه والثراء للمساهمة في مواجهة الأزمة وذلك بتقديم الطعام المعوزين وغير القادرين على توفير أبسط أسباب العيش وذلك بهدف التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وكان هؤلاء المتطوعون من الأغنياء الذين يملكون الغلال والمواد الغذائية، فبعض الناس كانوا يتخوفون من حدوث المجاعات، فيقومون بخزن الغلال والحبوب إلى وقت الحاجة الفعلية، وكان من بين هؤلاء المتطوعين الشريفة بنت صاحب السبيل ، وهي امرأة تقية ورثت أموالا ضخمة وكانت تتصدق بها على المحتاجين عند وقوع الشدة العظمى.

ولما ارتفع السعر وعظم الأمر على الناس ووصلت شكاياتهم إلى الخليفة المستنصر بصورة مزعجة، طلب والي القاهرة وأمره باتخاذ الاجراءات الكفيلة بحل أزمة الطعام والأسعار، وهدده بالقتل إذا لم يظهر الخبز في الأسواق ويقل سعر الحاجيات الضرورية

أصبح والي القاهرة أمام اختبار صعب، والناس في ضيق شديد، والخليفة ينتظر إجراء مناسباً، فقد كان كثير من التجار وبعض الفئات يستفيدون من هذه الظروف باحتكار الطعام لبيعه بأسعار مرتفعة جداً، وكان هذا الوضع يستدعي تدخل السلطة الرسمية وإلزامهم على اخراج ما يتوافر في مخازنهم من غلال وحبوب لبيعها للناس والسعر المناسب الذي يسهل على الناس معه شراؤها.

ثم وجد والي القاهرة المخرج بإرهاب التجار وتخويفهم بحزم لالين معه حتى لا يشعر أحد تهاونه في حال عدم استجابتهم فأخرج جماعة كانوا في السجن وكان حكمهم القتل بجرائم ارتكبوها ، فقام بتنفيذها بحضور التجار موهمة الناس أنهم من التجار، فقد ألبسهم لباس التجار وهي الطيلسان والثياب الواسعة الفضفاضة والعمائم المدورة.

وأدخلوا عليه بحضور تجار الغلال والخبازين والطحانيين، فأدخل عليه أحدهم في هيئة عظيمة حتى إذا مثل بين يديه قال له : (ويحك أما كفاك أنك خنت السلطان واستولت على مال الديوان إلى أن أخبرت الأعمال ومحقت الغلال، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية؟ اضرب رقبتك، فضربت، وتركه ملقى بين يديه، ثم أمر بإحضار آخر وقال له : (وكيف جسرت على مخالفة الأمر لما نهى عن احتكار الغلة وتماديت على ارتكاب ما نهت عنه إلى أن تشبه بك سواك فهلك الناس ؟ اضرب رقبتك، فضربت في الحال، واستدعى آخر، فقام إليه الحاضرون من التجار و الطحانيين والخبازين، وقالوا أيها الأمير: في بعض ما جرى كفاية، ونحن نخرج الغلة وتدير الطواحين ونعمر الأسواق بالخبز وترخص الأسعار على الناس ونبيع رطل الخبز بدرهم، فقال : ما يقنع الناس منكم بهذا، فقالوا نبيع الرطلين بدرهم، فأجابهم إلى ذلك بعد أن تضرعوا إليه ورجوه بقبول ذلك منهم ، وبدأت تخف حدة الأزمة وشدتها بإخراج الغلال.

إن هذا يدل دلالة قاطعة على أن الأطعمة كانت موجودة إلا أن الاحتكار الذي مارسه بعض التجار وأصحاب المصالح الأخرى هو الذي ضاعف الأزمة وساهم في تطورها إلى درجة كبيرة.

إن الأوضاع السياسية المتدهورة، وانشغال السلطة بالنزاعات والفتن الداخلية، كانت مسؤولة عن الاحتكار الذي مارسه التجار، وهذا أدى بدوره إلى تفاقم المجاعة في البلاد، مما دعا الخليفة إلى الاستتجاد بأحد قواد الفاطميين وهو الأمير بدر الجمالي ، وكان صاحب عقلية سياسية واعية أثبت مقدرة فائقة في مواجهة الأزمات

كان بدر موجوده في عكا في هذه الأثناء، فاشتراط على الخليفة أن يكون قدومه إلى مصر مع جيشه حتى يتمكن من السيطرة على الفوضى والنزاعات السياسية، فوافق الخليفة على ذلك.

أخذ بدر يعد نفسه للتوجه إلى مصر فجهز جيشه، وكان أكثره من الأرمن، وأبحر من ساحل الشام في فصل الشتاء في وقت لم يتعود فيه الناس ركوب البحر لكثرة المخاطر في هذه الفترة، فبدأت رحلته بالمغامرة التي تشير إلى حبه ركوب الصعاب، وربما أراد أن يفاجيء مصر بهذه الرحلة التي لا يتوقعها أحد ويدخل الرعب في قلوب من يخالفوه لأن

إقدامه على ركوب المخاطر بهذه الصورة تجعله أكثر مهابة في نفوس الناس، فوصل إلى
دمياط سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م

استدعى بدر الجمالي تجار تنيس واقترض الأموال، ثم توجه إلى القاهرة دون أن يعلم
أحد أنه قادم بالاتفاق مع الخليفة المستنصر، ثم رتب خطة للتخلص من قادة الأتراك
المتسلطين على شؤون الدولة بمن فيهم مقدم الأتراك يلد كوش والوزير ابن أبي كدينة،
فدعى الأمراء والقادة الذين عزم على التخلص منهم إلى دعوة أقامها لهم، واتفق مع
خواصه على أن يقوم كل واحد أو مجموعة منهم بأمر أحد الأمراء، ورتب ذلك فتمكن أن
يوقع بهم ويقتلهم لتصفو له الأمور في مصر، وقلده الخليفة المستنصر الوزارة، وفوضه
شؤون البلاد

أخذ بدر الجمالي يتصرف في مصر من تلقاء نفسه، ويعمل على إعادة الأمن والقضاء
على أسباب الفساد ومظاهر الاضطراب، وأولى الحياة الاقتصادية عناية خاصة، ورخصت
الأسعار ، وصلحت أحوال الناس، وانتشر الأمن بدل الخوف، ونشطت حركة التجارة

ثم تكفل بالقضاء على عناصر الشغب والجماعات المعادية للخلافة الفاطمية، وخاض
حروبا عدة ضد بعض القبائل العربية التي كانت تثير الشغب وتقوم بالاعتداء على المدن
والقوافل التجارية مثل بني قيس وبني سنبس وبني جهينة والثعالبة ، وتمكن من الانتصار
عليها ، كما وجه ضربة قوية إلى قبيلة لواتة التي أصبحت أحد عناصر الفساد في مصر
وقضى عليها

وبهذا تحسنت أحوال البلاد الاقتصادية، وبدأت آثار المجاعة بالزوال سنة بعد أخرى،
وقام بدر بترتيب أحوال مصر، والقضاء على أهم عوامل الفساد والفتن بين طوائف
الجيش، وبقي صاحب الكلمة الأولى في مصر ووزيرا للخليفة الفاطمي المستنصر حتى
وفاته سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٢ م